٥١ ـ ألم تأت أخبار المحل سراتكم فيغضب منكم كل من كان موجعاً[١]

٥٢ ـ بمشمته إذ صادف الحتف مالكاً ومشهده ما قد رأى ثم ضيعا

٥٣ ـ أأثرت هدماً بالياً وسوية وجئت بها تعدو بريداً مقزعا[٢]

٥٤ ـ فلا تفرحن يوماً بنفسك إنني أرى الموت وقاعاً على من تشجعا[٣]

٥٥ ـ لعلك يوماً إن تلم ملمة عليك من اللائي يدعنك أجدعا[٤]

٥٦ ـ نعيت امرأً لو كان لحمك عنده لآواه مجموعاً له أو ممزعا[٥]

٥٧ ـ فلا يهنىء الواشين مقتل مالك فقد آب شأنيه إياباً فودعا

تحليل القصيدة

إن هذه القصيدة أطول قصائد متمم وهي تقع في سبعة وخمسين بيتاً وهي التي وصفت بأنها أم المراثي، وهي التي نتناولها بالشرح والتحليل والنقد محاولين استقصاء الصور التي أولع بذكرها متمم أو أجاد في وصفها سواء كانت تلك الصور وليدة الحياة البدوية أو هي أثر من آثار الحياة التي عاشها قبل الإسلام وبقيت راسخة في ذهنه.

---

(١) في أمالي اليزيدي: ٢٤ (ألم يأت... فيغضب منها) والمحل هو ابن قدامة بن أسود، ويقال إنه مرّ بمالك وهو قتيل فلم يواره.

(٢) في المعاني الكبير: ٢: ١٢٠٧، اللسان ١٠: ١٤٤ وآثرت.. ورواية الشطر الثاني منه في أمالي اليزيدي: ٢٤ (وجئت به تسعى بشيراً مقزعا..) وفي التاج ١٠:٤٦٧ (وجئت به تعدو بشيراً مقزعا) آثرت فصلت، الهدم الكساء الخلق والسوية كساء يحشى بثمام أو ليف ونحوه ثم يجعل على ظهر البعير، ثم يركب ومقزع مجفف وأراد بقوله وجئت به تعدو أي إنك تسعى بخبره، مسرعاً كمجيء البريد.

(٣) رواية الشطر الثاني في أمالي اليزيدي: ٢٥ (أرى الموت طلاعاً على من تشجعا..) وأراد بقوله فلا تفرحن الدعاء عليه أي لا فرحت بنفسك. وقوله وقاعاً أي لا يفلت من الفوت أحد يقول آثرت ثيابك ومركبك، فنجوت وجئت تعدو بشيراً ترى الناس أنك قد فزعت لمقتله وإنما ذاك شماتة منك، وسرور بقتله.

(٤) في اللسان ج ١٣: ٥٠٢ (من اللاتي يدعنك أجدعا).
الأجدع: المقطوع الأنف، يراد به الذليل المستكين.

(٥) في أمالي اليزيدي: ٢٥ تركت إمرءاً... لآواه مجموعاً.

يبدأ متمم قصيدته برغبته في البكاء على أخيه طول حياته فهو ينكر أن همه وعادته سيكونان في تعداد خصال أخيه الحميدة، ولكنه ينفي ما يمكن أن يتبادر إلى الذهن من احتمال جزعه، فهو لا يجزع لما حدث لأخيه مع شدة حزنه عليه ويبدأ بعد مطلع القصيدة بتعداد فضائل أخيه فعلاً.

لعمري وما دهري بتأبين هالك ولا جزع مما أصاب فأوجعا

لقد كفن المنهال تحت ردائه فتى غير مبطان العشيات أروعا

ثم يستمر حتى البيت العاشر.

والمتابع لهذه الفضائل يجدها فضائل عربية حقاً فهو كريم حسن الخلق راجح العقل متّصف بالسماحة والنجدة والشجاعة وغير ذلك إلا أن هذه الصفات قد عرضت بثياب بدوية أصيلة تحسّ من خلالها أثر البداوة وحياتها فحسن الخلق في معاملة الأهل صفة يمتدح عليها الرجال مدحاً وتأبيناً إلا أنها وردت في بيت متمم الثالث مصوّرة لشظف العيش الذي يعاني منه البدوي فيبرز حسن خلقه أكثر من بروزه في الحياة المستقرة:

ولا برماً تهدى النساء لعرسه إذا القشع من برد الشتاءِ تقمعا

فالبرد الشديد الذي يقسو على العربي في صحرائه صوره متمم من خلال وصفه للجلد اليابس الذي يزيد تقعقعه إذا هبّت الريح، كما أن الشطر الأول فيه مدح من خلال صورة بدوية سنقف عندها مع الصور الأخرى وحين يريد متمم وصف أخيه بالنجدة تتبادر إلى ذهنه صورة بدوية كانت معروفة قبل الإسلام وهي سرعة نجدة أخيه لصاحبه إذا ما أصابه غم، أو داهمه خصم، لأنه لا يضيع من يستنجد به. وتنساب الأوصاف الأخرى راسمة صورة لفارس بدوي لا يحجم إذا اشتد الغزو واحتدم القتال ولا يهاب منازلاً مدججاً بالسلاح أو دونه.

بعد هذه الصفات يندفع متمم مرة أخرى للبكاء على أخيه وكأن تعداد

مآثره مسوغ آخر لاستمراره على البكاء فيخاطب عينيه يحثهما على البكاء من خلال صور جميلة تتراءى أمامه يبرز فيها وجه أخيه الذي افتقده. (الأبيات من ١١ - ١٧).

فعينيَّ هلّا تبكيان لمالك إذا أذرت الريح الكنيف المرفعا

فيعرض متمم في هذه الأبيات صوراً بدوية جميلة جداً إذا رآها افتقد أخاه فيها وزاد إحساسه بالألم لفراقه فمشهد الريح إذا اشتدّت وقلعت ما حرص العربي على ثباته كالحظائر والبيوت تجسم الفراغ الذي تركه مالك. لأن كرمه يعرف أكثر في هذه الأيام، ولأن شدة البرد والريح قد يتركان الكريم بخيلاً لضيق ذات يده بينما يبدو مالك في هذه الأيام العصيبة أكثر كرماً وجوداً وإذا رأى متمم مشهد أسير قد طال أسره حتى يبس قيده على يديه افتقد مالكاً إذ لو كان موجوداً لفك أسره وافتداه.

وإذا سمع متمم صوت رجل يرعى بعيره (يحمله على الرغاء) لتجيبه الإبل أو لتنبح الكلاب القريبة منه فيهتدي إلى وجود أناس يطعمونه ويكرمونه.. هذا الصوت بحدّ ذاته ينكره بأخيه الذي يسرع إلى نجدة من يضل طريقه، ويبحث عمّن يؤويه.

وضيف إذا أرغى طروقاً بعيره وعان ثوى في القد حتى تكنعا

وإذا رأى امرأة ذليلة تجر يتيمها الضعيف الذي أسيء غذاؤه فإنه يدعو عينيه للبكاء أيضاً لأنه يحس أن لو كان مالك موجوداً لأنقذ الأرملة ويتيمها من الضياع والفقر. هذه الصور البدوية الجميلة التي أجاد متمم عرضها أضاف إليها صوراً كانت معروفة قبل الإسلام وكأن صورة أخيه ما تزال ماثلة أمامه أيام كانا معاً في قبيلتهما قبل أن يحرم الإسلام كثيراً من معالم تلك الحياة، من ذلك وصفه لهمة أخيه وكرمه فهو يشترك مع القوم في ميسرهم ليطعم حصته من الطعام (ولا بر ما تهدى النساء لعرسه) وبذا فإن

زوجه هي الأخرى لا تحتاج إلى من يطعمها لأن زوجها يكفيها ويكفي الآخرين المحتاجين.

وحين يعم الجدب البادية وينحر الموسرون والأشراف تبرز صورة مالك الذي يشترك مع القوم في ميسرهم ويوزع حصته أو ما يفوز به قدحه من اللحم على المحتاجين:

إذا جرّد القوم القداح وأوقدت ... لهم نار أيسار كفى من تضجعا

وإن شهد الأيسار لم يلف مالك ... على الفرث يحمي اللحم أن يتوزعا

وقد ألحّت صور ما قبل الإسلام على مخيلة متمم فهو حين عدد صفات أخيه العربية أول القصيدة أضاف إليها حسن خلقه في مجلس الشراب فهو يحسن منادمة أصدقائه ولا تعبث الخمر برأسه ثقلاً يفحش ولا يسيء الأدب.. فإذا أضفنا إلى هذه الصورة صورة أخرى سترد في بيته التاسع عشر وجب علينا أن نقف محللين أسبب إيراد متمم لها مع نص القدماء على كونه قد أسلم وحسن إسلامه، وصور الميسر والقداح والشرب والمنادمة، وإجابة الداعي ونصرته قبل معرفة كونه ظالماً أو مظلوماً مثل هذه صور قد اختفت من حياة العرب بسبب تحريم الإسلام لها فلماذا أصرّ متمم على إبرازها في إشعاره؟ لا نجد تفسيراً لهذا إلّا بأن متمماً ما يزال شاعراً قد رسخت في ذهنه المعاني والصور التي مرّت به قبل إسلامه، وصورة أخيه ومآثره بالذات ما زالتا راسختين في مخيلته من خلال بروزه في عشيرته قبل الإسلام فارساً شجاعاً كريماً سيد قومه فرسم متمم صور أخيه المتنوّعة من خلال ما عرف به قبل الإسلام ولعل هذا هو سبب عدّه في الشعراء الذين قلّ تأثرهم بالإسلام لا من حيث قلّة المفردات والصور الإسلامية الواردة في إشعاره ولكن من خلال إلحاح الصور القديمة على مخيلته وعدم قدرته على الخروج عليها أو الإتيان ببديل عنها.

على أن هناك ملاحظة فنية أخرى وهي ان متمماً لا يستمر في تعداد مآثر أخيه أو رسم صور جميلة له على نسق واحد وإنما نجح في إعادة شد ذهن السامع إلى سبب تعداده هذه الفضائل فهو لا يستمر فيها ولا يسترسل إلّا بعد أن يقطع تأبينه ببيت أو ببيتين يظهر من خلالهما حزنه وآلامه ليسوغ لنا إفاضته في ذكر مآثر اخيه فنراه بعد الأبيات العشرة الأولى يبدأ مقطعاً جديداً في وصف مآثر أخيه بعد أن يفلح في إعادة ذهن القارىء إلى تذكر المرثي (فعيني هلا تبكيان لمالك) ويذكر بعد الأبيات ٢٢ - ١٧ إن الذي حال بينه وبين الصبر على فقد أخيه هو مثول المشاهد التي يفتقد فيها أخوه:

أبي الصبر آيات أراها وإنني أرى كل حبل دون حبلك أقطعا

وينتقل في البيت (٣٣) إلى الفكرة نفسها بأسلوب آخر من خلال محادثة امرأة له وإنكارها حزنه:

تقول ابنة العمري مالك بعدما أراك حديثاً ناعم البال أقرعا
فقلت لها طول الأسى إذ سألتني ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا

إن مثل هذه الالتفاتات تقوي نفس الشاعر في استرساله في تعداد صفات المرثي فيدونها قد يسرح ذهن السامع وينسى الغرض الذي يعدد فيه الشاعر هذه المآثر أو رثاء أم مديح مثلاً أهو فرح أم حزن فنجح متمم في إعطاء قصيدته الطويلة هذا التنوّع في إثارة عاطفة السامع ومشاركته له أحزانه.

ولعل حديث متمم عن الأخوة والمودّة اللتين كانتا تربطانه بأخيه مالك من الأحاديث التي سارت سير الأمثال كما نجح في تصوير تعلقه بأخيه بسبب كونه عضداً له معيناً على الشدات مجيباً لدعوته إذا دعاه فكانت حياتهما معاً طيبة..

وكان جناحي إن نهضت أقلني ويحوي الجناح الريش أن يتمزعا

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفوقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

(١٠) وبعد توكيده هذه الفكرة الإنسانية يسلي نفسه بذكر خصلة من خصال أخيه الطيبة وهي حياؤه وشجاعته في آن واحد وقد نجح فيها متمم أيضاً في رسم صورة الفارس العربي الذي تراه على خلق قويم فهو أحيا من الفتاة الحيية، ولكنه شجاع مقدام إذا اقتضى الموقف بطلاً فارساً (البيتان ٢٥ ـ ٢٦).

(١) إن الصورة البدوية التي ألحّت على مخيلة متمم جعلته يفصل في وصف المطر الذي إذا رآه دعا على قبر أخيه بالسقيا وهذه عادة من عادات الشعراء الذين رسموا لنا صورة لأهمية الماء في الحياة العربية فهو رمز الخير والبقاء والجمال فإذا أرادوا أن يدعوا على ديار ما بالخير والبركة فإنما يدعون لها بالسقيا لتزهر، وتريع وما دعوة متمم بالسقيا على الديار التي حلّ فيها قبر أخيه إلّا بسبب حبه له:

سقى الله أرضاً حلها قبر مالك ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا
فوالله ما أسقي البلاد لحبها ولكنني أسقي الحبيب المودعا

أما الأبيات ٢٣ ـ ٤١:

فيصور فيها متمم حزنه المستمر على فقده لإخوانه ذاكراً منهم من قتل في أيام قبيلته قبل الإسلام دون أن تحس بصدق عاطفته إزاءهم وإن حاول إبداء جلده وصبره على حكم الدهر ولعل سبب ذلك أنه استرسل في نكر النكبات التي مرّت عليه في حياته وابتعد عن الحدث الأساس الذي أثار كوامن حزنه وهو فقده لأخيه ففترت عاطفته في التعبير عن هذا التذكر

ولكنها عادت إلى جذوتها وصدقها حين عاد متمم إلى مشاعره الحقيقية في تصوير لواعج نفسه.

فعيدك ألا تسمعيني ملامة ولا تنكئي قرح الفؤاد فيبجعا

فقصرك إني قد شهدت فلم أجد بكفي عنهم للمنية مدفعا

وهنا يعود إلى متمم نفسه الشعري القوي في وصفه لشدة حزنه من خلال صورة بدوية حزينة أراد أن يوازن بها حزنه فيما يلاقيه من ألم قد يهد جبلاً بعينه ويضعضعه ولكنه يحاول أن يتمالك نفسه مصوّراً حزنه من خلال لوحة فيها ثلاث عاطفات على ولدهن، نكبن فجأة بفقدهن واختار من بين هذه النوق واحدة مسنّة نكبت بولدها فحزنها عليه يكون أشد من حزن الفتية على ولدها لأنها يائسة من ولد آخر فهي في مصيبتها أكثر حزناً ولهفة عليه، هذه الشارف الحزينة إذا بكت ورجعت حنينها لفقد ولدها جاوبها ألف من الجمال تعاطفاً معها أو لما يثيره ترجيعها وحنينها من حزن في نفوسها.. وهي صورة خيالية حقاً إلا أنها بدوية ألحّت على ذهن متمم لأنه كثيراً ما رأى الناقة الرؤوم التي تحن إذا فقدت ولدها فمنح قصته شيئاً من المشاعر الإنسانية وأضفاها عليها ليقول لنا إن حزن هذه الشارف التي تبكي ألفاً من الإبل أقل من حزنه يوم صيح بفقد أخيه وقتله..

وما وجد اظآر ثلاث روائم أصبن مجراً من حوار ومصرعا

يذكرن ذا البث الحزين ببثه إذا حنت الأولى سجعن لها معاً

إذا شارف منهن قامت فرجعت حنيناً فأبكى شجوها البرك أجمعا

وهكذا ينهي متمم قصيدته بإظهار حزنه وصبره، وجلده مع عتابه لمن مرّ بجسد أخيه ورآه ملقى ولم يغطه معلناً أن الموت لا شماتة فيه، وأن المصائب قد تصيب جميع الناس المهم أن أخاه غادر الدنيا بخصال حميدة، والملاحظ أخيراً أن متمماً في هذه القصيدة والقصائد الأخريات اكتفى

بإظهار حزنه وألمه لفقد أخيه وتعداد مآثره وفضائله دون الدخول بتفصيلات عن مقتله ودون الإشارة إلى سبب ذلك، وكأن معرفة السبب أو إعلانه لا يهمه في شيء قدر ما يهمه كون مالك هو أخوه وحبيبه وأن فقده قد آلمه وأبكاه.